مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 15، العدد 57 (شتاء 2004)، ص 42

خوان غويتيسولو*

إدوارد سعيد.. مثقف حرّ**

تعرفت إلى إدوارد سعيد في مدينة نيويورك سنة 1972 يوم كنت أستاذاً زائراً في جامعة نيويورك. كان يدرّس في جامعة كولومبيا حيث كان يحتل كرسي الأدب المقارن. كان ناقداً أدبياً من طراز استثنائي، وبعد أعوام قليلة تحول مؤلفه "الاستشراق" إلى مرجع لجميع الدراسات المتعلقة بالعالم العربي خاصة، وبالعالم الإسلامي عامة. كان بمثابة ثورة دكت الأسس التي قامت عليها الدراسات الغربية وأطروحات المستشرقين. فلقد بيّن بوضوح أن عدداً كثيراً من هؤلاء المستشرقين سخّر علمه، لا في سبيل الشعوب التي انكب على دراسة تاريخها وثقافتها وتقاليدها، وإنما لخدمة السلطات الإمبراطورية في البلاد الأوروبية، ولا سيما في فرنسا وإنكلترا. كان لقراءته تأثير قوي فيّ، وفي النصوص التي ضمنتها كتابي "حوليات العرب المسلمين (*sarrasines*) (*Chroniques*حيث اعتمدتُ، مع الاستشراق الإسباني الذي لم يكن يعرفه، منهجاً مشابهاً له. حافظنا منذ ذلك الحين على صداقة قريبة. إن سعة معرفة إدوارد كانت تتجاوز الأدب والسياسة لتطال حيزاً حميماً مثل الموسيقى.

تمكّن، من حيث هو فلسطيني وأميركي، من إلقاء نظرة ثنائية على العالمين. وطالما ترافق انتقاده لدعم واشنطن غير المشروط لإسرائيل مع نقد ذاتي مستمر يضيء على النواقص السياسية والثقافية في مجمل العالم العربي. وكان دفاعه عن القضية الفلسطينية دائماً في خدمة الحقيقة، ومن ضمن احترامه للشعب اليهودي.

في مطلع الثمانينات كتبت هذا التعريف المقتضب عن إدوارد سعيد مساهمة في نشر أعماله في إسبانيا، وأرسلته إلى نصف دزينة من الناشرين والأصدقاء والمعارف:

"سنة 1978 كان لصدور كتاب ‹الاستشراق› للفلسطيني إدوارد سعيد، أستاذ الأدب الإنكليزي والمقارن في جامعة كولومبيا، نيويورك – المعروف حتى ذلك التاريخ بنقده الأدبي الممتاز – وقع الصدمة في وسط المستشرقين الأنكلو ساكسون والفرنسيين، المغلق نسبياً والمكتفي بذاته. فقد عمد إلى تفحص العلاقات بين الغرب والشرق عبر عرض دقيق لمشروع المعرفة القائم على تملك مفهوم ‹الشرقي› وتعريفه باختزال دائم في أشكاله الاجتماعية والثقافية والدينية والأدبية والفنية، وذلك في خدمة حصرية، لا للشعوب المعنية بالدراسة، وإنما لهؤلاء الذين كانوا يعدون العدة

* كاتب وباحث إسباني.

** *Revue d'études palestiniennes*, no. 90 (hiver 2004), pp. 31-35.

للغزو والاستغلال بفضل تفوقهم التقني والاقتصادي والعسكري. ألقى سعيد بظلال الشك لا على صرامة منهجهم الدراسي فحسب، بل أيضاً وفي كثير من الحالات على أمانتهم ونزاهة مشاريعهم العلمية. وما عدا بعض الاستثناءات فإن الاستشراق، كما يقول سعيد، لم يساهم في فهم أفضل للشعوب التي انكب على دراستها من عربية وإسلامية وهندية إلخ، أو في تقدمها، إذ صنفها في فئات مجردة و‹أطباع› ثابتة، الأمر الذي يسهل إخضاع هذه الشعوب لسلطة حامل رسالة ‹الحضارة› الأوروبي. وانطلاقاً من مقدمات غامضة وغير مؤكدة، بلور الاستشراق كمّاً استلابياً من الوثائق المتناسلة من بعضها البعض، والتي اكتسبت مع مرور الزمن قيمة علمية قابلة للنقاش، لكنها لم تخضع قط للمراجعة الدقيقة. هكذا فإن قافلة بأكملها من الكليشيهات العرقية المعبرة عن تفوق الغرب تراكمت طوال قرون من الصراع بين المسيحية والإسلام، وهي التي وجهت كتابات الرحالة والمثقفين والتجار والدبلوماسيين. فجاءت ملاحظاتهم مفعمة بالرؤية الذاتية الملآنة بالأفكار المسبقة. وقد فضلوا تجاهل ما واجهوه من واقع معقد يصعب تدجينه، مستسلمين للـ ‹حقيقة› الساحقة المتضمنة في ‹الشهادات› المكتوبة قبلهم."

يعرض إدوارد بكثير من الصرامة آليات اختراع الآخر التي يتمفصل حولها المشروع الاستشراقي منذ القرون الوسطى. إن القساوة التي اتسم بها الهجوم، بحسب ما أشار إليه مكسيم رودنسون في حينه، جعلت من كتاب "الاستشراق" محوراً لمساجلة ساخطة لم تختفِ أصداؤها حتى اليوم. فالانتقادات القاسية والدُفوع الشغوفة بالكتاب برهنت على أن المؤلف أحسن التصويب، إذ لم يُبقِ أحداً على الحياد. لكن مبادرتي لم تلقَ الاستجابة المطلوبة، إذ إن موضوع الكتاب عند صدوره كان لا يزال إغرابياً فاكتفيت بنشره ضمن سلسلة كنت أشرف عليها، لكن سوقها كانت محدودة إن لم تكن معدومة. ولحسن الحظ تغيرت الحال.

كما يعرف قراء إدوارد سعيد من الإسبان فإن مؤلفاته تطال حقلاً معرفياً واسعاً جداً؛ وهذا غريب بعض الشيء، كما سنرى، على الفضاء العربي الإسلامي المنكفئ على نفسه والذي لا يشعر كثيراً بالحشرية تجاه العالم الخارجي (يكفي مثلاً مقارنة عدد المؤلفات – بالآلاف على الأرجح – الصادرة في الغرب عن هذه الحضارة القريبة، لكن التي يصعب استيعابها وفق معاييرنا، مع ما يقارب خمسين مؤلَّفاً فقط عن أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى صدرت في المشرق والمغرب العربيين بقلم رحالة ومفكرين، ليتبين لنا عمق الهوة الفاصلة بين الغرب وهذا الخليط من الثقافات والمعتقدات الدينية واللغات التي تحتويها عبارة "الشرقي" التي ابتدعناها. وأود أن أوضح هنا أن إسبانيا في وضع مختلف، إذ إن انعدام قابليتنا للمعرفة والاستيعاب فيما يخص الثقافات الأُخرى يبعدنا أيضاً بما لا يعوض عن أوروبا).

يمكن لقارئ إدوارد سعيد أن يختار ما يفضله من مختلف أوجه كتاباته: تحليله الممتاز لجوزف كونراد وللعلاقة بين السيرة الذاتية والتخييل؛ نقده الأدبي في "بدايات": "النية والمنهج"، و"العالم"، و"النص والنقد"؛ علمه في الموسيقى حيث كان لي شرف الاستماع إلى محاضرات لا تنتسى ألقاها في "كوليج دو فرانس (Collège de France)"؛ سرده للرحلة الجميلة التي قام بها إلى موطن طفولته السليب والتي حولته دون رجعة إلى الفلسطيني التائه، المحلل السياسي الحازم في مقاربته لما سمي زوراً "عملية سلام" ولنتائج اتفاق أوسلو...

لكني أود إضافة ملاحظة تبدو لي جوهرية من أجل فهم هذا العمل الغني والمثير للاهتمام. فعلى غرار المنفيين في التاريخ، استطاع إدوارد استخراج القوة من صلب مأساته ومأساة شعبه ليحولها إلى تحد وامتياز: تحويل "المصير إلى ضمير" وفق القول المأثور لأندريه مالرو، واستخدام هذا المصير من أجل كتابة تحمل متطلبات الحميمية والترفع لتتجاوز المصادفات والأوضاع الخاصة فترقى إلى أسمى من الالتزام السياسي الملموس. لم يضحِّ إدوارد سعيد قط بالرأي الفردي على مذبح الأفكار المسبقة الجماعية. وهذا الطبع النادر جعل منه طائراً يغرد خارج سرب الحمام الداجن* في خدمة السلطة القائمة، أكانت سياسية أم اقتصادية أم إعلامية.

منحته حالة المنفى في مصر، ومن بعدها في الولايات المتحدة، تعويضاً شخصياً تمثل في الهامشية المثمرة التي يتمتع بها من تؤدي به الأوضاع إلى الإقامة بمنطقة حدودية، عند تخوم الغرب والشرق الأوسط، حيث يمكنه من هناك التأمل في ثقافته في ضوء الثقافات الأُخرى، وفي لغته في ضوء اللغات الأُخرى. ولأنه كان متعمقاً في الأدب والتاريخ الأنكلو ساكسوني والفرنسي، ومدركاً لرمزيات السيطرة الغربية الإمبريالية على العالم العربي الإسلامي، نجح في مقاربة هذا الأخير بحميمية ومسافة، كما بمحبة وصرامة.

في مؤلفاته المتوالية استنكر إدوارد سعيد الغياب المؤذي لأي نقد ذاتي في أوساط المثقفين العرب: انغلاقهم الثقافي؛ الانطواء الانتحاري على الماضي؛ رفضهم أو تجاهلهم الوقائع المحبطة أو المثيرة للخوف؛ عقدة الحب/الكراهية إزاء الغرب؛ النقص في الديمقراطية الحقيقية؛ خضوع هؤلاء المثقفين للعبة الحكام. مجموعة أمراض تدفعه إلى التساؤل في كتاب "فلسطين، وطن بلا أرض": "هل نحن محكومون بالتخلف والتبعية والرداءة إلى ما لانهاية؟ هل نحن في طريقنا إلى أن نكون نسخة عن أفريقيا القرن التاسع عشر في نهاية القرن العشرين؟"

تدل التجارب المدمرة في الأعوام المنصرمة على أن النقد التبصري لإدوارد سعيد

* إشارة إلى دراسة رمزية لخوان غويتيسولو ظهرت في *Le Monde diplomatique*.

تجاه اتفاق أوسلو كان محقاً. فبعد فترة من اللاحرب واللاسلم استلمت خلالها السلطة الوطنية الفلسطينية مهمة حفظ الأمن الهش داخل غيتوات وبانتوستانات، جاءت الزيارة "البريئة" لشارون إلى الحرم القدسي وبداية الانتفاضة الثانية لتبرهنا، إذا كان هناك من لزوم للبرهان، مدى ما يعانيه الفلسطينيون من ظلم، وما يغذي الإرهاب لدى الجماعات الإسلامية، وما يرتكبه شارون ولا يمكن تسميته إلاّ إرهاب الدولة.

فبعد الاعتداء الرهيب في 11 أيلول/سبتمبر 2001 وحرب أفغانستان، نشهد تكراراً يشبه الوضع الذي أوجدته حرب الخليج ودعم الغرب للأنظمة العربية والإسلامية الفاسدة والقمعية المنحازة إليه بحذر. فالخيار المتروك لشعوب الشرق الأوسط هو بين السيئ والأسوأ، أي الهروب إلى الأمام نحو نزعة إسلامية غير متسامحة ورجعية، أو الخضوع لهذه الأنظمة التي تستمر في جهلها وتخلفها الاقتصادي والثقافي.

أود في النهاية أن أقرأ بعض مقاطع من مقال لإدوارد سعيد صدر مؤخراً بعنوان "الشرق الأوسط في المأزق"، حيث يضع الإصبع على الجرح بكل ما يعرف عنه من استقامة واستقلالية رأي: تخلي الغرب عن المبادئ التي يبشر بها في البلاد العربية (وأضيف في أفريقيا وآسيا والعالم الأيبيري الأميركي).

"إن أنصار العلمانية المعترضين بكل جرأة على ما تتعرض له حقوق الإنسان من انتهاكات، والمناضلين ضد استبداد رجال الدين محاولين التحدث والتصرف باسم نظام ديمقراطي حديث، هم معزولون في معركتهم هذه، لا تساندهم الثقافة الرسمية وإنما يتركون مع مؤلفاتهم ومصائرهم المهنية عرضة للغضب الإسلامي المتصاعد..."

"المذنب الحقيقي هو نظام التعليم البدائي... القائم على توليفة قرآنية تضاف إليها تمارين للحفظ غيباً، مستلة من كتب صادرة قبل خمسين عاماً على الأقل، داخل صفوف مكتظة بالطلاب بإشراف أساتذة مفتقرين إلى التجهيزات وعاجزين عن ممارسة أي تفكير نقدي... أنتج هذا الجهاز التربوي الذي عفّى عليه الزمن نواقص غريبة لجهة المنطق والتفكير الأخلاقي، وتقديراً غير مكتمل للحياة البشرية، الأمر الذي يخلّف الحمى والحماسة الدينية من أسوأ الأصناف، أو العبادة الخانعة للسلطة..."

نحن في أمسّ حاجة إلى هذا النقد النيّر الذي يوجهه إدوارد سعيد إلى آليات السيطرة الغربية، كما إلى جذور التخلف الثقافي والديمقراطي والاجتماعي في البلاد العربية. فنحن اليوم في مواجهة حادة مع فظاعة الإرهاب المتعصب والأعمى وغيره من الفظاعات، كتلك التي يعانيها يومياً الفلسطينيون وما تلقاه من تغطية مرائية من جانب كثير من الحكومات.

كان إدوارد سعيد مثقفاً حراً، وأضيف أنه كان المثقف الحر الوحيد في العالم العربي. فكان صوته مرجعاً لجميع مثقفي الغرب والشرق، الرافضين للحلقة المفرغة

للعنف المفروض على الفلسطينيين من جانب المتطرفين الإسرائيليين. وعلى الرغم من المرض الذي كان يفتك بصحته منذ عقد من الزمن فقد دافع بسخاء وغيرية عن قضية شعبه، إلى درجة بات يجسد معها القدسية العلمانية التي تحدث عنها كلوديو غيلّن* في الليلة المشهودة التي قدمناه خلالها في "حلقة الفنون الجميلة" في مدريد. يترك موته فراغاً لا يمكن ردمه حيث يمر الفلسطينيون بمرحلة شديدة القساوة. علينا أن نأمل بأن يُصغَى إلى صوته للتوصل إلى سلم قابل للحياة يسمح للإسرائيليين والفلسطينيين بالعيش في سلام من خلال عودة الشرعية الدولية، أي قيام دولتين ضمن الحدود التي كانت رسمتها حرب الأيام الستة.■

* كاتب إسباني.

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf